إنَّنِي أَتَفَهَّمُ أنَّهُ يجبُ أنْ يكونَ هناكَ حِوَارًا دائمًا بينَ الشَّرقِ والغربِ؛ لأنَّ هذَا الحِوارَ يمكنُ أنْ يكونَ مُثمِرًا، ويمكنُ أنْ يساعدَ كلَّ الأطرَافِ، نحنُ نُقدِّمُ ثقافاتٍ مختلفةً، ونُقَدِّمُ تراثًا مختلفًا يمكنُ أنْ يكونَ مهمًّا لكُلِّ الشُّعوبِ، وهذَا جزءٌ منْ ثقافتِنَا، وجزءٌ من تُراثِنا الَّذِي يمكنُ أنْ يُساهِمَ في التُّراثِ العالَميِّ؛ لكنَّ مشكلةَ القوميَّةِ ينبغِي أنْ تُوضَعَ فِي إطارِ هذَا الحِوارِ كذلكَ.

لوْ أنَّنَا فتحنَا أيَّ قاموسٍ، أوْ معجمٍ لمعرفَةِ معنَى القوميَّةِ، فإنَّ الفكرةَ الأساسيَّةَ هيَ أنَّ الشَّعبَ هُوَ وِحْدَةُ الأفرادِ داخلَ المجتمعِ بمَا يدعمُ الاستقرارَ بصفةٍ عامةٍ، وبالتَّالِي فنحنُ نستخدمُ فِي مُنَاقشَاتِنَا تَعْبِيراتٍ مُعَقَّدَةً بمَا يساعدُنَا أحيانًا فِي مواجهةِ هذَا المفهومِ القَوْمِيِّ أوْ مفهومِ القوميَّةِ والشَّعْبَوِيَّةِ.

هذهِ الأفكارُ الشَّعْبَوِيَّةُ تطوَّرَتْ بشكلٍ واضحٍ فِي الفترَةِ الماضيةِ، منذُ مئاتِ السَّنوَاتِ كانَ مفهومُ الشَّعبِ يقومُ علَى أساسِ أَعْرَاقٍ مختلِفَةٍ، أمَّا الآنَ أصبحَ مفهومُ الشَّعبِ لهُ أغراضٌ وأهدافٌ وأبعادٌ سياسيَّةٌ.

منذُ ١٥٠ عامٍ كانتِ الشَّعْبَوِيَّةُ مفهومًا سَلْبِيًّا، فلوِ استمعتَ إلَى خطابِ الرَّئيسِ الأمريكيِّ، أوِ الرُّوسيِّ؛ فالرَّئيسُ الأمريكيُّ يقُولُ: إنَّهُ رجلٌ شَعْبَوِيٌّ، والرَّئيسُ الرُّوسيُّ يقُولُ: إنَّهُ أوَّلُ رئيسٍ شَعْبَوِيٍّ للاتِّحادِ الفيدْرَالِي الرُّوسيِّ.

وبالتَّالِي أرَى أنَّ هذهِ مفاهيمُ معقدةٌ، وبالطَّبعِ فهولاءِ السَّياسيُّونَ ينبغِي أنْ نطرحَ عليهِمْ سؤالًا حولَ فكرةِ القوميَّةِ والشَّعبِيَّةِ، فالدُّولُ المستقرَّةُ سياسيًّا قادرةٌ علَى أنْ تُوصِلَ وتَبْنِيَ حِوارًا لهُ دلالاتٌ وأهدافٌ، ولهذَا فعندمَا نتحدَّثُ عنِ القوميَّةِ أعتقدُ أنَّنا يَنْبَغِي أنْ نكونَ حَرِيصِينَ للغايَةِ، وأنْ نتناولَ هذَا الأمرَ في ظلِّ الإصلاحِ السِّياسيِّ، وقدْ كانَ هُناكَ عالِمٌ بريطانيٌّ عظيمٌ طلَبَ منَ البريطانِيِّينَ أنْ يُحدِّدُوا مثلًا مَا هِيَ هُوِيَّتُهُمُ القوميَّةُ.. أنتَ لنْ تستطيعَ أنْ تتعامَلَ معَ كُلِّ هذهِ الأمورِ إلَّا إذَا كانَ لديكَ أساسٌ قويٌّ؛ وبالتَّالِي تستطيعُ أنْ تقومَ علَى أساسِ إصلاحٍ اقتصادِيٍّ، وبالتَّالِي ينبغِي أنْ تكونَ متمكِّنًا وقويًّا، وينبغِي أنْ نكونَ مُتَّحِدِينَ لمواجَهَةِ هذَا الأمرِ.

وبالنِّسبَةِ للهُوِيَّاتِ القوميَّةِ فإنَّها تتداخلُ معَ فكرةِ الدِّينِ، وأعتقدُ أنَّ هذَا الأمرَ مُهِمٌّ، وأعطيكُمْ مثالًا عنْ (أُوكرَانيَا)، رُبَّمَا تتذكَّرُونَ أنَّ (أوكرَانيَا) منذُ آلافِ السِّنين كانتْ منْ أقوَى البُلدانِ فِي أوروبَّا، وكانتْ أراضِينَا تمتدُّ منَ البحرِ البريطانيِّ وحتَّى البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ، ومنذُ ٣٠٠ عامٍ اللغةُ الأساسيَّةُ كانتِ اللغةَ الأوكرانِيَّةَ، وللأسفِ فَقَدْنَا كُلَّ هذَا، وبعدَ ذلكَ تَمَّ غَزْوُنَا منْ قوَّاتٍ

مختلِفَةٍ، وفَقَدْنَا السِّيادَةَ والسَّيطرَةَ، وكانَ الْحُلمُ الأعظمُ لكثيرٍ منَ الأوكرَانِيِّينَ أنْ يجدُوا دولَتَنَا مستقرَّةً ومستقلَّةً.
وفِي القَرْنِ العِشْرِينَ سعَينَا لمرَّاتٍ عدِيدَةٍ حتَّى لتحقيقِ الاستقرَارِ والاستقلَالِ حتَّى نجَحْنَا فِي النِّهايَةِ.
إنَّ روسيَا احتلَّتْ ٧ منْ دُوَلِنَا، وهُنَاكَ آلافُ الضَّحايَا الَّذينَ قُتِلُوا أوْ جُرِحُوا فِي هذهِ الحُرُوبِ، وبالإضَافةِ لحصُولِنَا علَى استقلالِنَا، استطعنَا كذلكَ الحصولَ علَى هُويَّتِنَا واسترجَاعِهَا، فبدُونِ أنْ تحصُلَ على هُويَّتِكَ فكأنَّكَ تعيشُ برِئَةٍ واحِدَةٍ.
كان لَدَيْنَا دولةٌ، لكنْ لمْ يكُنْ لَدَيْنَا قوميَّتُنَا، تَمَّ إخبارُنَا بأنَّنَا لَا نستحِقُّ هذهِ القوميَّةَ، ولَا يمكنُ أنْ تتخيَّلُوا سعادتَنَا حينَمَا أُعْلِنَ بعدَ ذلكَ أنَّ أوكرَانيَا سوفَ تحصُلُ علَى استقلالِهَا، كانَ هذَا بمثابَةِ حُلْمٍ؛ لوْ سألتَ أيَّ أوكرَانِيٍّ الآنَ مَا هُوَ حُلمُكَ، ومَا هيَ أعظمُ الانجازَاتِ بعدَ الاستقلالِ الَّذِي حصَلْنَا عليهِ منذُ ٢٧ عامًا سيقُولُ: «إنَّهُ فكرةٌ، إنَّهُ أصبحَ للكنيسَةِ دورٌ مُسْتَقِلٌّ»، وبالتَّالِي أريدُ أنْ أؤكِّدَ علَى دَوْرِ العُلَماءِ الدِّينِيِّينَ.
أريدُ أنْ أَشكرَكُمْ علَى حِكْمَتِكُمْ فِي هذَا المؤتمَرِ
وشُكرًا علَى أنَّكُمْ جَعَلْتُمُونِي عُضْوًا فِي هذَا اللِّقَاءِ
***